النعم ومفهومها في السياق القرآني

أ. نبيهة بنت يحيى زيد الكديس*

سلم البحث في ١٤٤٤/٩/٢٢هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٤/١٠/٢٥هـ

ملخص البحث:

استهدف البحث التعريف بالنعم، ومفردات النعم وأنواعها، وتم استخدام المنهج الاستقرائي والتحليلي. وتكونت خطة البحث **من:** مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.اشتملت المقدمة على: مشكلة البحث، وأهدافه، وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وحدوده. وخصص المبحث الأول: في التعريف بالنعمة وفيه مطلبان: الأول: تعريف النعمة لغة. الثاني: تعريف النعمة اصطلاحاً. والمبحث الثاني: التعريف بمفردات النعم وفيه مطلبان: الأول: الضابط الحقيقي لمعرفة النعم. الثاني: التعريف بمترادفات النعم. والمبحث الثالث: إشارة القرآن للنعم وأنواعها وفيه مطلبان: الأول: إشارة القرآن إلى كثرة النِّعَم وأنها لا تحصى. الثاني: بيان أصول النِّعَم الدينية والدنيوية في القرآن والسنة. وذكرت في الخاتمة: أهم النتائج التي توصل إليها البحث ومنها: أن جميع النعم تصدر عن الله تعالى وهو مالكها والمتصرف بها ورازقها، وأن من انفرد بالخلق والرزق وحده هو من يجب أن يوحد بالعبادة وذلك دليلاً على ألوهيته وربوبيته، وأن من فوائد النعم الاستدلال بها على المنعم وعلى قدرته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

Abstract:

The Concept of Bounties in the Quranic Conext

Written by: Nabiha Yahya Zaid Hussain Al-Kadis

This research aims to give a definition of 'bounties', their vocabulary and types. The inductive-analytical method is adopted. The research plan consists of: An introduction, ٣ topics, and a conclusion. The Introduction includes the research problem, its objectives, significance and previous studies, in addition to the research method and limits.Topic One is concerned with the definition of a bounty (blessing). It includes two themes. Theme One: Definition of bounties linguistically. Theme Two: Definition of bounties idiomatically.Topic Two: Definition of the bounties' vocabulary; it includes two themes: Theme One: The real control of knowing bounties. Theme Two: A definition of the bounties' synonyms.Topic Three: The Quran's reference to bounties and their types. It includes two themes: Theme One: The Quran's reference to the abundance of bounties and that they are countless. Theme Two: stating the origins of religious and worldly bounties in the Quran and Sunnah. In the Conclusion, I stated key **results** reached to by the research, among which are: All bounties are from Allah, Who is the

* باحثة دكتوراه بقسم العقيدة والدعوة بجامعة الملك عبد العزيز.

(Possessor/Al-Malik), Disposer, and the (Provider/Al-Raaziq) of them; Whoever is unique and alone in creation and sustenance is the one who must be worshipped alone (with no partner with Him). This is evidence of His Divinity and Lordship; Among the benefits of bounties and favours is to deduce from them their Provider and His Ability and Knowledge, as well as His Wisdom, and Oneness of Divinity.

المقدمة:

إن الحمد لله أحمده وأستعينه واستغفره، وأعوذ بالله من شرورأنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. إن من أشرف العلوم ما يتعلق بجانب الاعتقاد؛ لأنه هو المتعلق بالغاية التي خلق الله الإنس والجن لها وهي عبادته، ورأس العبادة هو التوحيد فإذا انقطع هذا الرأس مات ما سواه، ومن خصائص هذا العلم أنه هو المتعلق بالله وأسمائه وصفاته وباليوم الآخر، وعلماؤه هم رأس الحربة في الدفاع عن دين الله من شبهات المفترين ومزاعم المبطلين، وهم أيضاً رأس الحربة في تبليغ دين الله وإيصاله كما ينبغي أن يصل إلى الناس، فهم مجاهدون بألسنتهم جهاد دفعٍ وطلب، والهداية إلى الإسلام وإلى عقيدة أهل السنة هي والله النعمة التي لا تعدلها نعمة، فعقيدة أهل السنة هي العقيدة الوحيدة التي بنيت على الكتاب والسنة ولا يرفضها عقل صحيح ولا تأباها فطرة سليمة.

ومن الكمال والنفع أن يحرص طالب العلم الشرعي عموماً والعقدي خصوصاً على ربط ما يكتبه ويلقيه ويعلمه ويتعلمه في مجاله بالوحيين؛ لأنه كلما اقترب منهما اقترب من نور العصمة الذي يقربه من الصواب ويبعده عن الخطأ والزلل.

وقد ورد في القرآن الكريم امتنان الله على عباده بذكر النعم، كإنزال الكتب، وإرسال الرسل، والنصر على الأعداء، وتسخير السماوات والأرض والأنعام؛ لإقامة الحجة على توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الألوهية والأسماء والصفات، والتصديق بالرسالات، والوعد والوعيد، والجزاء. وقد ورد لفظ النعمة ومشتقاته في السياق القرآني مائة وتسع وثلاثين مرة في مائةٍ وسبع وعشرين آية مكية ومدنية في خمس وستين سورة، وهذا يوضح لنا مدى اهتمام القرآن الكريم بموضوع النعمة،والحيز الواسع الذي خصص للحديث عن هذا الموضوع، والآثار الناتجة عن القيام بحقها، أو جحودها أو نكرانها، حيث وردت فيما يزيد عن نصف عدد سور القرآن الكريم، فلا شك في أهمية هذا الموضوع وقيمته، إذ إن النعمة من أهم

الدلائل على عظمة وقدرة ووحدانية المنعم المتفضل، ولذلك لا عجب أن يفرد لها القرآن الكريم كل هذه المساحة للحديث عنها في الآيات والسور المكية والمدنية.

وحري بطلبة العلم الإفادة من هذه المواضيع والعكوف عليها وربطها بالعقيدة من خلال القرآن الكريم.

مشكلة البحث:

– ما هي النعمة وما خصائصها ودلالاتها العقدية في القرآن الكريم ؟

أهداف البحث:

- يهدف البحث على الربط بين الدراسة العقدية والقرآن الكريم، مما يكسبه قوة دلالية كونه ينطلق من كلام الله العظيم.
- الاستدلال بالنعم المحسوسة لبيان الحجج التي تضمنها القرآن.
- الاستدلال بالنعم الحسية يجعل لحجيتها ودلالتها شموليةً أكبر.
- الجمع بين الحسي والنقلي في الدلالة العقدية وفي هذا جمع بين دلالة النقل والحس التي هي متوافقة بمقتضى الضرورة مع صريح العقل.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في هذا الموضوع في الآتي:

١. أن هذا البحث يتركز في الغاية العظمى التي خلق لأجلها الخلق، ألا وهي التوحيد، وغاية خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب تنتهي إلى الوصول إلى توحيد الله في عبادته، والإيمان بالبعث والنشور.

٢. أن الحد الأساسي الذي ينطلق منه البحث استقراءً واستنباطاً واستدلالاً هو كتاب الله العظيم، الذي هو نور يضاء به الدرب ويشرح به الصدر وهو مشكاة يستقي منها كل طالبٍ لأي علمٍ من علوم دين الله سواءً كان متعلقاً بالعقائد أو المعاملات.

٣. أن دلالة النعم دلالة حسية، والأمور الحسية الكلية أمر يشترك فيه عموم البشر فلهذا أمكنت مخاطبتهم بما يدل عليه من أمور الاعتقاد، والاحتجاج به عليهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وأنه إذا عرف أن النعم كلها من الله، صار توكله ورجاؤه له وحده" [١]، ويقصد رحمه الله بالمعرفة في كلامه هذا: المعرفة المستلزمة للإيمان، وليست من يعرف ثم ينكر مكابرة وجحوداً.

٤. أن هذا الموضوع يجمع جميع أركان الإيمان تقريباً، الذي يعتبر الإيمان بها هو الثمرة المنشودة من تعلم علم الاعتقاد وتعليمه والدعوة إليه.

٥. أن هذا الموضوع لم يفرد ببحث مستقل مستوعب لجميع الآيات وحجيتها

العقدية.

الدراسات السابقة:

بعد البحث في محركات البحث، وأدلة الرسائل العلمية، وسؤال المراكز المتخصصة في الدراسات البحثية، لم يظهر –حسب الجهد المبذول – دراسة علمية تتعلق بالدلالات العقدية للنعم في القرآن الكريم، سوى بعض الدراسات المشابهة، والتي يعتبر موضوعي امتداداً لها، وهي على قسمين:

أ- الدراسات المتعلقة بالدلالات العقدية في القرآن وهي كالتالي:

– رسالة دكتوراة بعنوان: (المباحث العقدية المتعلقة بالماء في الإسلام واليهودية والنصرانية)، للباحثة: عبير بنت علي الموزان في عام ١٤٣٥ هـ، وتضمنت هذه الرسالة بابين، وستة فصول، وعشرة مباحث.

وهذه الدراسة تركزت على دراسة ما يتعلق بالماء في القرآن والسنة والعهدين القديم والجديد.

– رسالة ماجستير بعنوان: (الدلالات العقدية للإنسان في القرآن الكريم)، للباحثة: نورة بنت راشد الحويطان، في عام ١٤٣٥هـ، وتضمن البحث مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة.

– رسالة ماجستير بعنوان: (الاستدلال بالآيات الكونية على توحيد الألوهية في القرآن الكريم)، للباحثة: سارة بنت عبد الله الشريف، في عام ١٤٤٠، وتكونت من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة. الفصل الأول: المسالك العقلية التي جاء بها القرآن الكريم في الاستدلال بالآيات الكونية على توحيد الألوهية، والفصل الثاني: الاستدلال بالآيات الكونية على الأمر بعبادة الله تعالى، والفصل الثالث: الاستدلال بالآيات الكونية على نفي الشرك في عبادة الله.

– رسالة ماجستير بعنوان: (عقيدة التوحيد في القرآن الكريم)، للباحث: محمد بن أحمد بن عبدالقادر ملكاوي، في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد طبعت في عام ١٤٠٥هـ. وكان الفصل الرابع من الباب الأول بعنوان: تقرير القرآن للتوحيد بالتذكير بنعم الله، وكان هذا الفصل عبارة عن استعراض تأملي لبعض النعم الكبرى التي أوجدها الله لعموم الناس والمخلوقات على هذه الأرض، والتي ذكرت في القرآن، وأما تقسيمات الفصل: فكان تقسيمًا عنون كل قسمٍ منه بنعمة أو بأكثر إذا كانت النعم متلازمة، كالشمس والقمر والليل والنهار.

وأما الفروق بين بحثي هذا وهذه الرسالة فسيكون من جانبين موضوعي وشكلي، فأما الموضوعي فسيتركز على الاحتجاج بالنعم لإثبات ما تقتضيه من مسائل الاعتقاد التي ذكرتها في التقسيم المبدئي لفصول البحث على منكريها. وأما الشكلي: فالفصل المذكور في هذه الرسالة قسمه الباحث على حسب النعمة، وأما التقسيم الذي أنوي السير عليه فهو عنونة كل فصل وما تحته من المباحث بالمسألة العقدية المستدل لها، كما أن دراسة ملكاوي لم تستوعب الآيات التي وردت فيها النعم، كما لم تستوعب كل المسائل العقدية التي ورد الاستدلال والاحتجاج بالنعم عليها في القرآن الكريم.

– رسالة ماجستير بعنوان: (القضايا العقدية في سورة النحل)، للباحثة: رباب حمد السليم، في الجامعة الإسلامية بغزة، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، نوقشت في عام ١٤٣٤هـ، وكان عنوان الفصل الخامس: النعم في سورة النحل وثمراتها الإيمانية والتربوية، ويتكون من مبحثين: المبحث الأول: النعم في سورة النحل، وتضمن هذا المبحث تعريف النعمة لغة واصطلاحًا، وسرد النعم المذكورة في سورة النحل. والمبحث الثاني: الثمرات الإيمانية والتربوية لذكر النعم في سورة النحل، وتضمن بعض الفوائد والآثار التي تعود على قلب الإنسان وسلوكه عند التأمل في نعم الله.

وهذا البحث يختلف مع بحثي في الموضوع والحدود، فموضوع بحثي يتركز في المقام الأول على الاحتجاج بالنعم على مسائل الاعتقاد ودلائلها بينما بحث الطالبة اقتصر على مسائل سورة النحل وما فيها من النعم. وأما ما يتعلق بالحدود: فهذا البحث كان في سورة النحل، وأما بحثي فسيكون مبنيًا على تتبع آيات النعم في القرآن الكريم، ثم استنباط ما تتضمنه من حجية في نصها أو سياقها أو فيهما جميعًا.

ب- الدراسات المتعلقة بالنعم وهي كالتالي:

– رسالة دكتوراة بعنوان: (شكر النعم وإنكارها وأثر ذلك في العقيدة)، للباحثة غربية بنت عبدالله الغربي، في وكالة الرئاسة لتعليم البنات كلية الآداب في الرياض، في عام ١٤١٥هـ.

وقد تضمنت الرسالة بابين وأربعة فصول واثنا عشر مبحثًا، سأذكر منها ما له علاقة بموضوعي: فكان الباب الأول بعنوان: النعم وأثرها في هداية الإنسان للإيمان، وكان عنوان الفصل الثاني منه: الاستدلال بالنعم على وجوب عبادة الله،

وفيه مبحثان: أولهما: منهج القرآن في الاستدلال بالنعم على توحيد الله، ومطالبه هي: الغرض من الاستدلال بالنعم، أمثلة من استدلال بعض الأنبياء عليهم السلام بنعم الله على توحيده، وأمثلة من استدلال بعض العلماء بالنظر في نعم الله على وجوب عبادته، ونماذج من القرآن في الاستدلال بالنعم على توحيد الله. وثانيهما: دلالة أسماء الله وصفاته على وجوب شكر النعم.

وأما الفروق بين هذه الرسالة وما يتضمنه موضوعي فيتلخص في أمرين:

الأول: أن هذه الرسالة كان مدارها على الاستدلال بالنعم على هداية الله وأسمائه وصفاته وليست عامة لجميع مسائل الاعتقاد الواردة في القرآن الكريم.

والثاني: أن الرسالة تطرقت لدلالة النعم على التوحيد فقط، بينما بحثي بإذن الله سيتضمن دلالة النعم على التوحيد وإرسال الرسل والبعث والجزاء تأسيسًا ونقضًا.

رسالة ماجستير بعنوان: (نعم الله في القرآن دراسة موضوعية)، للباحثة: عبير بنت مطلق معتق، في عام ١٤٢٥ه في وكالة كليات البنات، وتضمنت مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وتسعة مباحث، وكان الفصل الثاني من هذا البحث بمباحثه يتكلم عن نعمة الهداية للإسلام، ونعمة هداية الأنبياء، وهداية أتباعهم إلى الإسلام.

وأما الفروق بين بحثي وهذا البحث فيتلخص في أمرين:

أولهما: أن هذا البحث يندرج تحت الدراسات التفسيرية، وبحثي دراسة عقدية.

الثاني: أن منهج هذا البحث يعتمد على الاستقراء والسرد، وبحثي يعتمد منهج الاستقراء والاستنباط على سبيل التقرير والنقض.

منهج البحث:

- المنهج الاستقرائي: من خلال استقراء القرآن الكريم، واستخراج الآيات المتعلقة بمسائل العقيدة الموضحة بخطة البحث.
- المنهج التحليلي الاستنباطي: من خلال دراسة المسائل العقدية المستنبطة من الآيات.

الخطوات الإجرائية في إعداد البحث:

- عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها من المصحف؛ بذكر اسم السورة، ورقم الآية في الحاشية، وكتابتها بالرسم العثماني.
- تخريج الأحاديث النبوية بعزوها إلى مصادرها؛ فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فيُكتفى بهما، وإن لم يكن في أحدهما فيُخرَّج من كتب السنة المعتبرة، مع نقل حكم أهل العلم عليه.

- تخريج الآثار الواردة في البحث من مصادرها الأصلية – قدر الاستطاعة –.
- عند النقل لنص إن كان المنقول بنصه فسأجعله بين قوسين مع الإشارة إلى مرجعه في الهامش، وإن كان بمعناه أحلت إلى مصدره في الهامش.
- سأقوم بحصر جميع الآيات التي ورد فيها الاحتجاج بالنعم في القرآن لإثبات مسائل الاعتقاد وأصنفها تصنيفًا موضوعيًا على أصول الاعتقاد.
- التعريف بالأعلام، والفرق، والطوائف والأماكن، والمصطلحات من المراجع المعتمدة.

حدود البحث: معرفة النعمة وخصائصها في القرآن الكريم ودلالاتها العقدية.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من:

المقدمة: واشتملت على: خطة البحث، ومشكلة البحث، وأهدافه، وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، والخطوات الإجرائية في إعداد البحث وحدوده.

المبحث الأول: في التعريف بالنعمة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف النعمة لغة.

المطلب الثاني: تعريف النعمة اصطلاحاً.

المبحث الثاني: التعريف بمفردات النعم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الضابط الحقيقي لمعرفة النعم.

المطلب الثاني: التعريف بمترادفات النعم.

المبحث الثالث: إشارة القرآن للنعم وأنواعها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إشارة القرآن إلى كثرة النِّعَم وأنها لا تحصى.

المطلب الثاني: بيان أصول النِعَم الدينية والدنيوية في القرآن والسنة.

الخاتمة: تضمنت أهم النتائج.

المبحث الأول
التعريف بالنعمة
المطلب الأول: تعريف النعمة لغة

تعريف النعمة لغة:

النعم والأَنْعم:" جمع مفرده النعمة، والنُعم، اتساع العيش وطيبه خلاف البؤس. والنّعِمة: من نعم ينعم وهي: الصنيعة والمنَّة – وما أُنْعِم به من رزق ومال وغيره، قال ابن فارس (ت: ٣٩٥): النون والعين والميم فروعه كثيرة، وهي على كثرتها راجعة إلى أصل واحدٍ يدلُّ على:ترفه وطيب عيش وصلاح. ومنه أيضاً

النِّعمة: ويقصد به ما يُنعِم الله تعالى على عبده به من مالٍ وعيش. والنِّعْمة: المنَّة وكذا النَعْماء:اليد البيضاء الصالحة. والنِّعْمة: التنعُّمُ وطيبُ العيش، قال تعالى ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٧]. والنُّعَامَى: الريح اللينة، والنَّعَم: المواشي وأكثر ما يقع على الإبل، لما فيها من الخير والنِّعمة[٢]. والنِّعْمَة والنَّعِيم: الدَّعَةُ، والمالُ، والتَنَعُّم يراد به الترفه، وقد نَعِمَ- بالكسر- ينَعَمُ وينعُمُ وينعِمُ والنعمة الحالة الحسنة، وبناء النعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة، والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير، قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] وقوله تعالى ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى:﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤] والعديد من الآيات[٣] ".

وفي ضوء ذلك نخلص إلى أن كلمة " النعمة في أصل اللغة تدل على الحال التي يستلذها الإنسان،ويستطيبها ويتمناها، وبناء على ذلك فإنه يقصد بها رفاهية العيس وطيبه ومتعته ورغده وسعته.

تعريف النعمة اصطلاحاً: اختلفت العلماء فى تعريفها على أقوال عدة، منها:

- قول الغزالي الشافعي (ت: ٥٠٥هـ): " النعمة كل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا، فهو معين لك على الدين، فهو إذَن نعمة [٤].

وقد ذكر مبيناً حقيقة النعمة: اعلم أنَّ كلّ خير ولذّة وسعادة، بل كلّ مطلوب ومؤثر؛ فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية [٥].

- قول ابن قدامة المقدسى الحنبلى (ت:٦٢٠هـ): "كل مطلوب يسمى نعمة،ولكن النعمة في الحقيقة فى السعادة الأخروية "[٦].
- قول ابن تيمية الحنبلي (ت:٧٢٨هـ): وهو يذكر خلاف العلماء في مسألة هل لله على الكافر نعمة، والنعمة المطلقة والنعمة المقيدة، بعد ذكر قول الله تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] "فالحياة نعمة، وإدراك اللذات نعمة، وأما الإيمان فهو أعظم النعم،وبه تتم النعم"[٧].
- قول الجرجاني الحنفي (ت: ٨١٦هـ): "النّعمة هي ما قصد به الإحسان والنفع، لا لغرض ولا لعوض"[٨].
- قول ابن حجر الشافعى (ت: ٨٥٢هـ): "فالنّعمة قيل هي الحالة الحسنة، وقيل: هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان للغير"[٩].

• قول بعض أهل العلم المعاصرين: "نِعم الله تعالى هي:ما تكَّرم به عز وجل مِن المنح والعطايا، والمنافع والمصالح في الأنفس والآفاق، والدنيا والآخرة، والمتصلة والمنفصلة، ومِن أجلها بعد الإيمان نعمة الإيجاد والإمداد" [١٠].

إن سعادة الآخرة لا تكون إلا بالفوز بنعيم الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم ونيل رضوانه هذه هي النعمة الحقيقية الكاملة، وكذلك ملذات الدنيا ومسراتها التي تعين على تلك السعادة، فكل نعمة لا تُقرّب من الله فهي بلية، ولهذا ذم تعالى الجاحدين على فهمهم الخاطئ للنعمة فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦]، فمن اعتقد أن التوسيع في الرزق إكرام من الله للعبد،وليس ابتلاء واختباراً فهو المفتون حقاً.

المبحث لثاني
التعريف بمفردات النعم
المطلب الأول:الضابط الحقيقي لمعرفة النعمة

إن هذه الدنيا بما فيها أعطاها الله ليُشكر عليها، كما يخلق ليُعبد سبحانه.والسعيد هو الشاكر لله سبحانه وتعالى على عطاياه، وإذا مُنع صبر، وإذا أذنب استغفر. أما من ابتلاه ربُّه بالنعم وأكرمه ووسّع عليه في الرزق والبنين، ولم يقُمْ بشكر المولى ولا عمل بمقتضى النعم من الإيمان والشكر والحمد، فنعم مَن هذا حاله لا تعد نعماً على الحقيقة بل ابتلاء وامتحان خسر فيه العبد وما نجح، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦]،

وقال تعالى:﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]،وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

إن الإنسان منذ وجد على وجه الأرض، وجرى عليه القلم في ابتلاء وفتنة، فالابتلاء من سنن الله الجارية في الناس والأمم، قال الله تعالى ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣] فكان لابُد أن يُمتحن الناس ويُبتلوا حتى

يبدو للمرء من نفسه ما لم يكن يعلم، فقد يظن المرء أنه يبتغي وجه الله تعالى في عمله ودعوته، فإذا ابتلي بمن ينافسه وينازعه بان له أن في دعوته وعمله حظاً لنفسه، كذلك يميز الله به الكاذب من الصادق، والخبيث من الطيب، والشقي من السعيد، قال تعالى:﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد يعتقد البعض أن الابتلاء هو بالمحن والشدائد وحدها، ليس الأمر كذلك، فابتلاء الله تعالى لعباده في هذه الحياة الدنيا شامل للخير والشر، فكما يكون بالشدائد والمصاعب فإنه كذلك يكون بالخيرات والنعم، قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٢٨]، فلا شك أن الولد والمال نعمة وخير، إلا إن كثيراً من المسلمين في غفلة عن أن ماهم فيه من نعمة هو في الواقع فتنة واختبار. قال الله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]،

قال ابن كثير: "أي نختبركم بالمصائب تارة،وبالنعم أخرى،لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط"[١١].

وعن ابن عباس قال: "نبتليكم بالشر والخير فتنة، وبالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال"[١٢].

وقد بين ﷺ أن المسلم في جميع أحواله من خير وشر لا ينفك عن الابتلاء، فوجب عليه مع النعمة الشكر، ومع المصيبة الصبر، فعن صهيب بن سنان τ، قال: قال رسول الله ﷺ: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"[١٣].

إن نعم الله تعالى على عبيده ليست دليل محبة وإكرام كما يعتقد بعض الناس، فيستدل بما منَّ الله به عليه من خير على حب الله له، ثم على صلاح طريقته وفلاح منهجه، فليس في النعمة ما زعم، فهي ابتلاء من الله تعالى للعبد يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، فقدر المرء عند ربه لا يتعلق بقدر ما حصل

من عرض الدنيا، ولا يستدل بالمنع أو العطاء في الدنيا على رضا الله أو سخطه على العبد، فالدنيا أقل من أن تكون محل جزاء للطائع بالنعم، ولا عقاب للعاصي بالنقم، وإلا لكان رسول الله ﷺ أكثر الناس عرضا في الدنيا، كذلك الصحابة الكرام، والتابعون لهن بإحسان.

إن الابتلاء بالسراء والنعمة أشد وطأة وأعظم خطراً من الابتلاء بالضراء والشدة، ذلك لأن ابتلاء النعمة خفي لا ينتبه له إلا من وفقه الله تعالى، فإلف النعمة يورث الغفلة،فينسى شكرها، ويقصر فى الحفاظ عليها،فهو يأتى على حين غفلة من العبد أنه في ابتلاء، هذا بخلاف الابتلاء بالشدة فهو موقظ للعبد،قال تعالى:﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

كذلك من ابتلي بالنعمة قد يستعين بها على المعصية، فالأبواب أمامه مفتحة على الخير والشر على حد سواء. ولقد دلنا الرسول ﷺ على خطورة الابتلاء بالنعمة صراحة، وفى حديث أبى عبيدة لما قدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافوا صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: "أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيءٍ مِنَ البَحْرَيْنِ فأَبْشِرُوا وأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ولكِنْ أَخْشَى عليكمْ أَنْ تُبْسَطَ عليْكُمُ الدُّنْيا كَمَا بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ فَتنافَسُوها كَمَا تَنافَسُوها فتهلككم كما أهلكتهم"[١٤].

فرسول الله ﷺ يخاف علينا مما نحب من توارد النعم وكثرة المال، ويأمنُ علينا مما نكره من الشدة والفقر، وذلك بسبب شدة البلاء بالنعمة وكثرة الزلل فيه، على خلاف البلاء بالشدة، فهو أقل خطراً لما يجد المرء ممن يقوي عزمه ويشد على يديه أن صبر واحتسب.

القاعدة في التفريق بين ما كان نعمة أو بلاء، هى "أَمَّا تَمْيِيزُ النِّعْمَةِ مِنَ الْفِتْنَةِ: فَلْيُفَرِّقْ بَيْنَ النِّعْمَةِ الَّتِي يُرَى بِهَا الْإِحْسَانُ وَاللُّطْفُ، وَيُعَانُ بِهَا عَلَى تَحْصِيلِ سَعَادَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ، وَبَيْنَ النِّعْمَةِ الَّتِي يُرَى بِهَا الاسْتِدْرَاجُ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالنِّعَمِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، مَفْتُون بِثَنَاءِ الْجُهَّال عَلَيْهِ، مَغْرُور بِقَضَاءِ اللَّهِ حَوَائِجَهُ وَسَتْرِهِ عَلَيْهِ! وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ أَنّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ عَلَامَةُ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاح، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْم. فَإِذَا كَمَلَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِيهِ عَرَفَ حِينَئِذٍ أَنّ مَا كَانَ مِنْ نِعَمِ اللّهِ عَلَيْهِ بِجَمْعِهِ عَلَى اللّهِ فَهُوَ نِعْمَةٌ حَقِيقَةٌ، وَمَا فَرَّقَهُ عَنْهُ وَأَخَذَهُ مِنْهُ فَهُوَ الْبَلَاءُ فِي صُورَةِ النِّعْمَةِ، وَالْمِحْنَةُ فِي

صُورَةِ الْمِنْحَةِ، فَلْيَحْذَرْ فَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَدْرَجٌ، وَيُمَيِّزْ بِذَلِكَ أَيْضًا بَيْنَ الْمِنَّةِ وَالْحُجَّةِ، فَكَمْ تَلْتَبِسُ إِحْدَاهُمَا عَلَيْهِ بِالْأُخْرَى! "[١٥].

وفي ضوء ذلك يتضح أنَّ الضابط الحقيقي لمعرفة " النِّعْمة " من الابتلاء هو أن النعمة هي الهبات والملذات التي أعانت على طاعة الرحمن، ليصل العبد بها إلى السعادة الأبدية،والفوز العظيم في جنات النعيم، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

المطلب الثاني: التعريف بمرادفات النعمة

• **المرادف الأول: التعريف بـ"بالآلاء"**: الآلاء جمعُ مثله مثل الآناء، يقال في الفردِ: أَنًى، وإنًى،وإنْيٌ، وإنْوٌ، وأَلًى، وإلى، وإلْيٌ وإلْوٌ–بالفتح والقصر في الاثنين–، وقد تكسر الهمزة. ومعنى الآلاء النعم، هذا قول أهل العلم رحمهم الله؛ قال الراغب (ت:٤٢٥هـ): "قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] أي نِعَمَه، الواحدُ: ألاً وإلىً، نحو أناً وإنى لواحد الآناء"[١٦]. "والآلاء: جمع إلى، وألى مثل معى وعصى.

– قال في "بحر العلوم": الآلاء: النعم الظاهرة والباطنة الواصلة إلى الفريقين. وبهذا يظهر فساد ما قيل: من أن الآلاء هي النعم الظاهرة، والنعماء هي النعم الباطنة. والصواب أنهما من الألفاظ المترادفة، كالأسود والليوث، والفلك والسفن... "[١٧].

– قال الحسن البصري كما في صحيح البخاري: "﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]: نعمه، وقال قتادة: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]: يعني، الجن والإنس.

– قال ابن حجر" وقال الحسن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ﴾ [الرحمن:١٣] نِعَمهُ، وصله الطبري من طريق سهل السراج عن الحسن. قوله: وقال قتادة ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني، الجن والإنس، وصله ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة" [١٨].

– قال القرطبي (ت: ٦٧١هـ): "﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أَيْ نِعَمَ اللَّهِ، وَاحِدُهَا إِلًى وَإِلْيٌ وَإِلْوٌ وَأَلًى، كَالْآنَاءِ وَاحِدُهَا إِنًى وَإِنْيٌ وَإِنْوٌ وأنى"[١٩].

– وقال ابن كثير (ت:٧٧٤ه): "﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أَيْ: نِعَمَهُ ومنَنه عَلَيْكُمْ وَآلَاءُ جمع ألى وقيل: إلى" [٢٠].

– وقال السعدي (ت: ٧٧٤ه):" "﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه الواسعة، وأياديه المتكررة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها ﴿تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون

بالمطلوب، وتنجون من المرهوب، فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا"[٢١]. فيظهر أنَّ معنى الآلاء هو النعم، وأنَّ مفرده لم يكثر استعماله.

المرادف الثانى: التعريف ب" الأيادي": الأيادي والأيدي: جمعُ،مفردُهما: اليد التى بمعنى النعمة، يقال يَدْيتُ إليه؛ إذا أسديتُ إليه، قال الراغب الأصفهانى بعدما ذكر اليد الجارحة: "استعير اليد للنعمة، فقيل: يديتُ إليه، أي أسديتُ إليه،وتجمع على أيادٍ،وقيل: يدي. قال الشاعر[٢٢]: فإنّ له عندي يَدِيًّا وأنْعُماً "[٢٣].

المرادف الثالث: التعريف بـ"المنن": المِنَن جمع المِنّة، وهو مِن كلمة مَنَّ عليه يَمُنّ، وامْتَنّ عليه امتناناً، قال ابن فارس: "الميم والنون أصلان؛ أحدهما يدلُّ على قطع وانقطاع، والآخر على اصطناع خير؛ **الأول:** المنّ: القطع، ومنه يقال: مَنَنْتُ الحبلَ: قطعته، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦]..**والأصل الآخر:** المنُّ، تقول مَنَّ يمنّ مَنًّا، إذا صنع صُنعاً جميلاً، ومن الباب: المنّة، وهي القوة التي بها قوام الإنسان، وربما قالوا: منَّ بيدٍ أسداها، إذا قَرَّع بها. وهذا يدلُّ على أنه قطع الإحسان، فهو من الأول"[٢٤]. والمعنى التابع للأصل الثاني (الصنع الجميل) منه اشتق المنّ القولى الذي هو صنيع المنان بما أعطى[٢٥] وكذلك المنّ الفعلي، فالقولي هو ما يكون بعد العطية والصدقة والإحسان، وقد نهى عنه تعالى، فقال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٢٦٤]، وقال:﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٢٦٢]،والمنونة والمنَّانة التي زُوِّجت لمالها فهي تمُنّ على زوجها.

ويظهر من ذلك أنّ المنن بمعنى النعم الثقيلة، وأنه لا يقال: مَنَّ عليه إلا إذا أثقله بالنعمة، فيظهر هنا العلاقة بين المنن والنعم الذي هو غاية البحث.

المبحث الثالث

إشارة القرآن للنعم وأنواعها

المطلب الأول: إشارة القرآن إلى كثرة النعم وأنها لا تحصى.

القرآن الكريم،والسنة النبوية نعمتان جليلتان، وفيهما من بيان أجناس النعم وأنواعها وأفرادها فيما يتعلق بخلق الإنسان وإمداده، وكذلك بقية المخلوقات،

وبالنعم فى السماء وفى الأرض، وفى الدنيا وفي القبر وفى الآخرة، أُصولاً ومتممات ما الله به عليم، قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، فقوله هنا: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ خاصُ داخل في عموم النعم التى آمر الله سبحانه بذكرها وتذكرها فى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فهو من عطف الخاص على العام، والقاعدة تقول: " عطفا لخاص على العام مُنَبِّه على فضله وأهميته، حتى كأنه ليس من جنس العام؛ تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات " [٢٦].

قال السعدي: "باللسان ثناء وحمداً، وبالقلب اعترافاً وإقرارا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة اللذين بيّن لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم مالم تكونوا تعلمون"[٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ١٥٠ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ١٥١ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢].

قال السعدي وهو يتحدث عن شأن تحويل القبلة ". ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته، لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة، فهي نعمة عظيمة قال تعالى:﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٠]، فأصل النعمة، الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه،ثم بعد ذلك،النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة، ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلله الحمد على فضله، الذي لا نبلغ له عدا، فضلا عن القيام بشكره،... إلى أن قال: يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدْع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغَها إرسالنا إليكم هذا لرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه.﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبّينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التى دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع

ما أخبر به من المعاد والغيوب،حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني. ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع، إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه،﴿ وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة،معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها. فيكون –على هذا– تعليم السنة في تعليم الكتاب، لأن السنة، تبين القرآن وتفسره،وتعبر عنه، ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته، في ضلال مبين،لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل، نالته هذه الأمة فعلى يده ، وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الأطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء،... والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموما فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب، إقرارا بالنعم، واعترافا، وباللسان، ذكرا وثناء، وبالجوارح، طاعة لله وانقيادا لأمره، واجتنابا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقة التي تدوم، إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله،ولينفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر. ولما كان الشكر ضده الكفر،نهى عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ١٥٢﴾ المراد بالكفر هنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها،وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة،أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي،على اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك،فما دونه" [٢٨].

المطلب الثاني: إشارة القرآن إلى كثرة النعم وأنها لا تحصى

نعم الله على خلقه كثيرة، ولا يمكن عدُّها ولا إحصاؤها ولذلك سلك القرآن الكريم عِدّة مسالك لبيان ذلك، **أبرزها:**

أولاً: استخدام لفظ النعم (جمعاً) للدلالة على الكثرة والتعدد، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١] وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ [لقمان: ٢٠]، وورد في قراءة (نعمته) بالإفراد،قال الماوردي: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ٢٠﴾، قرأ نافع وأبو عمرو وحفص بغير تنوين على الجمع والباقون بالتنوين يعنى نعمة واحدة، وفى هذه القراءة وجهان :أحدهما: أنه عنى الإسلام فجعلها واحدة، قاله إبراهيم .الثانى :أنه قصد التكثير بلفظ الواحد كقول العرب: كثر الدينار والدرهم، والأرض سيف وفرس، وهذا أبلغ في التكثير من لفظ الجمع[٢٩]" .

وقال القرطبي: "والنعم :جمع نعمة كسدرة وسدر(بفتح الدال) هي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص .الباقون":نعمة "على الإفراد، والإفراد يدل على الكثرة، كقوله تعالى":﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَاتحصوها﴾ [إبراهيم:٣٤] .النحاس :وشرح هذا أن سعيد بن جبير قال فى قول الله عز وجل: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم"﴾ [المائدة:٦] قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لما كان الإسلام يئول أمره إلى الجنة سمي نعمة .وقيل :الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل .وقال المحاسبي :الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العقبى، وقيل :الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال فى الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوردي في هذا أقوالا تسعة، كلها ترجع إلى هذا"[٣٠].

ثانياً– إضافة النكرة (نعمة)إلى لفظ الجلالة (الله)، والقاعدة تقول: "كلّ اسم معرفة ذي أفراد يفيد العموم..."[٣١]، وقد ورد هذا في القريب من عشرين موضعاً من القرآن الكريم، منها قوله تعالى:﴿ومن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١] المراد به الجمع، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:١٠٣] وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل:٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ثالثاً: استخدام لفظ الآلاءِ (جمعاً) للدلالة على الكثرة والتعدد، ولم تستخدم اللفظة (الآلاء) في القرآن الكريم إلا مجموعاً، بل وندر في اللغة استخدام مفردها، قال الله

تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩]،وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]. يقول ابن جرير: "(فبأي آلاء ربك تتمارى) يقول تعالى ذكره: فبأي نعمات ربك يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشك وتجادل، والآلاء: جمع إلى. وفي واحدها لغات ثلاثة: إلي على مثال علي، وإلي على مثال علي، وألى على مثال علا[٣٢]".

رابعاً: التنصيص بأنه لا يمكن تعداد النعم ولا إحصاؤها؛ وذلك من كثرتها،قال الله تعالى:﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١٨]، فالنعم كثيرة لا تُحصى، قال الغزالي: " وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة،فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه؛لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة،وفي كل ساعة قريب من ألف نفس ،وكل نفس قريب من عشر لحظات،فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة، في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم،فانظر هل يُتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ "[٣٣]

هذا لكثرة نعم الله تعالى، وتسلسلها، وخروجها عن الحصر والإحصاء"[٣٤].

الخاتمة :

أن جميع النعم تصدر عن الله تعالى وهو مالكها والمتصرف بها ورازقها ، وأن من انفرد بالخلق والرزق وحده هو من يجب أن يوحد بالعبادة وذلك دليلاً على ألوهيته وربوبيته ، وأن من فوائد النعم الاستدلال بها على المنعم وعلى قدرته وعلمه وحكمته ووحدانيته .

هوامش البحث:

[١]- مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق العلامة عبدالرحمن بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ.

[٢]- المقاييس في اللغة، لابن فارس، مادة نعم: (١٠٣٥).

[٣]- بصائر ذوي التمييز،(ج٣/١٦٢).

[٤]- إحياء علوم الدين، (ج٢/١٣٩٠).

[٥]- ينظر: المرجع السابق.

[٦]- مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي: (٣٠٠).
[٧]- رسالة في تحقيق الشكر، ضمن جامع الرسائل لابن تيمية: (ج١/١١٠).
[٨]- كتاب التعريفات، للجرجاني ،مادة: النعمة: (٣٣٣).
[٩]- فتح الباري، لابن حجر: (ج٤/٤٥٣٠).
[١٠]- البرهان في شعب الإيمان، علي الشربجي: (٢٣٠).
[١١]- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: (٣٠٠/٥).
[١٢]- مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني: (٥٠٨/٢).
[١٣]- أخرجه مسلم في صحيحه " ٢٢٧/٨" برقم (٢٩٩٩)، وابن حبان في صحيحه (١٥٥/٧) برقم (٢٨٩٦).
[١٤]- أخرجه البخاري،كتاب المغازي: (٨٤/٥) برقم (٤٠١٥)، وسلم، كتاب الزهد والرقائق (٢٢٧٣/٤)، برقم (٢٩٦١).
[١٥]- مدارج السالكين، ابن القيم:(١٨٩).
[١٦]- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب، مادة إلى: (٨٤).
[١٧]- تفسير حدائق الروح والريحان، محمد الهرري: (٢٧٥).
[١٨]- فتح الباري، العسقلاني:(ج٣/٣٤١٠).
[١٩]- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي:(ج٣/٢٦٤).
[٢٠]- تفسير القرآن العظيم،لابن كثير: (ج٢/٣٠١).
[٢١]- تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي: (٢٩٤).
[٢٢]- ذكر محقق كتاب المفردات (صفوان عدنان)،أنّ البيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، وأنه في نوادر أبي زيد وصناعة الإعراب وغير ذلك،ينظر: مفردات ألفاظ القرآن،للراغب، مادة يد،(٨٩٠).
[٢٣]- ينظر: المرجع السابق،مادة يد:(٨٨٩-٨٩٠).
[٢٤]- معجم المقاييس في اللغة، لابن فارس، مادة منَّ: (٩٦٢).
[٢٥]- ومثال على ذلك: أذية المتصدق للمتصدق عليه،بقول، فعلت لك، وأحسنت إليك ؛ ليرى له فضلا عليه، ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: (ج١/٤١٥).
[٢٦]- قواعد التفسير جمعاً ودراسة، د. خالد السبت: (ج١/٤٧٥).
[٢٧]- تيسير الكريم الرحمن، ابن السعدي،: (١٠٣).
[٢٨]- ينظر: المرجع السابق: (٧٤).
[٢٩]- تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي: (ج٤/٣٤٢).
[٣٠]- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (ج٢، ٨٥).
[٣١]- قواعد التفسير، خالد السبت: (ج٢/٨٥).
[٣٢]- جامع البيان،محمد بن جرير الطبري: (ج٢٢/٥٥٥).
[٣٣]- إحياء علوم الدين،محمد بن محمد الغزالي الطوسي: (ج٢/١٤١٠).
[٣٤]- ينظر: المرجع السابق: (ج٢/١٣٩٥).

المراجع والمصادر:

- **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، (ت ٥٠٥هـ)، لناشر دار المعرفة – بيروت.
- **البرهان في شعب الإيمان**، علي الشربجي، دار القلم للطباعة، سوريا – دمشق (ط١/ج١).
- **بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: حمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- **التعريفات**، للشريف علي بن محمد الجرجاني،دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨ه.
- **تفسير القرآن**، لعز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام الدمشقي الشافعي (ت: ٦٦٠)، اختصار النكت للماوردي (ت: ٤٥٠)،دار ابن حزم، ط١,١٤٢٢ه.
- **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير**، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار السلام للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ. طبعة أخرى: قدم له يوسف عبدالرحمن المرعشلي، دار المعرفة، ط٩,١٤١٧ه.
- **تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوم الهرري الشافعي (ت١٤٤١ه)، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت–لبنان، ط١: ١٤٢١ه–٢٠٠١م.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ.
- **جامع البيان في تأويل القرآن**، للطبري، تحقيق: محمود شاكر وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر.
- **الجامع لأحكام القرآن**،لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت: ٦٧١ه)، راجعه وضبطه وعلق عليه د. محمد إبراهيم الخضاري وخرج أحاديثه د. محمود حامد عثمان،دار الحديث،ط١٤١٦،٢ه.
- **الرسالة**، للإمام الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بلا سنة طبع.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢ ه)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩م.
- **قواعد التفسير جمعاً ودراسة**، لخالد بن عثمان السبت،دار ابن عفان، ط١,١٤٢١ه ــ
- **مختصر منهاج القاصدين**، نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، (ت٦٨٩ه)، قدم له الأستاذ: محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، عام النشر: ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، للإمام ابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار النفائس، ودار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٠ه.
- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥ه) اعتنى به: د. محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي،ط١,١٤٢٢ه.

• **المفردات في غريب القرآن**، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم والدار الشامية، ط٢، ١٤١٨هـ.